إنتاج المستشرقين وأثره
في الفكر الإسلامي الحديث

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث
المـــؤلـــف: مالك بن نبي
موضوع الكتاب: فـكـر
عدد الصفحات: 40 صفحة
عدد المـــلازم: 2.5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17 x 24
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 2274 / 2024
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6903 - 83 - 8

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

مالك بن نبي

تقديم

أ.د/ محمد عبد الله الشرقاوي

دار البشير

بين يديّ هذه النشرة
للأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي

لقد أسعدني كثيرًا قرار دار البَشِير بإعادة نشر التراث الفكري لفيلسوف الحضارة: مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي، المولود في ناحية (تبسة في الجزائر سنة 1905) ومن دَوَاعِي غِبْطتي أن إعادة نشر مؤلفات مالك بن نبي، سوف تجعلها متاحة أمام طلاب العلم والباحثين والمثقفين في أنحاء العالم، لأن أفكار مالك بن نبي النهضوية التجديدية لا تزال حيَّة فاعِلة محرِّكة، تشتد حاجتنا إليها على الرغم من مرور عقود على كتابتها ونشرها.

ومما يسعدني أن أشير إليه هنا أن أوَّل قراءاتي عن الاستشراق كانت في كتابين مهمين على الرغم من وجازتهم هما: «إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث) للمفكر مالك بن نبي وكان قد أصدره سنة 1968م، أي بعد هزيمة الحكومات العربية أما الجيش الصهيو - غربي بسنةٍ واحدة، ولقد كان مالك بن نبي متأثِّرًا جدًّا بهذه الهزيمة النكراء وقد كان لها صدى واضحًا في تحليلاته الفكرية بمقدماتها ووقائعها ونتائجها وتداعياتها.

أما الكتاب الثاني فقد كان لأستاذ الفلسفة الإسلامية العراقي الكبير عرفان عبد الحميد رحمه الله بعنوان «المستشرقون والإسلام»، وهو بحثٌ موجَز نُشر سَنَة 1969م، وقد كان من تمام التوفيق أن أتعرَّف إلى عالم الاستشراق بتحليل المفكر الفيلسوف مالك بن نبي وبنقاش الأستاذ الأكاديمي عرفان عبد الحميد، وقد احتَكَّ كل منهما بمدرسة استشراقية

تختلف عن الأخرى، إذ ارتجل مالك بن نبي من الجزائر إلى باريس، وكانت له فيها قصة تستحق أن تُروَى مع المستشرق الفرنسي العقيد لويس ماسينيون، والتحق عرفان عبد الحميد بجامعة كامبريدج في بريطانيا وتتلمذ على مستشرقها الكبير جون آرثر آبري.

تلكما مدرستان من أهم مدارس الاستشراق العشر وأكثرها فاعلية وتأثيرًا.

أوَلَيْس الاستشراق قد نشأ «أول ما نشأ على أرض فرنسا»، وقد وضعت بذوره في دير كلوني وهو أكبر دير في تاريخ المسيحية في الغرب والشرق، ولقد تمَّت في هذا الدير لخطير أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية لدحْضِه وتشويهها وإبطاله، وقد أشرف على هذه الترجمة رئيس رهبان الدير بطرس المبجَّل، هذا وقد وُلِدت فكرة الحروب الصليبية الوحشية البغيضَة في هذا الدير الفرنسي كما إن استراتيجية استعادة الأندلس من أيدي المسلمين ليتسلمها ملوك الشمال الكاثوليك قد رعاها هذا الدير الفرنسي البندكتي.

ثم إن قرارَ إنشاء خَمسة أقسام أكاديمية في جامعات أوروبا الكبرى من سلطته في إسبانيا إلى بولونيا وباريس وأوكسفورد قد اتخذه (مجمع فيين الكنسي سنة 1312م)، لتدريس اللغة العربية وأدبيَّتها على أرض فرنسا حين نقل ملك فرنسا البابوية من الفاتيكان إلى فرنسا، بعد أن اختلف مع البابا، فاعْتَقَله، وعيَّن باباوات فرنسيين لبضعة عقود.

ثم نشأت المدرسة الاستشراقية الإنجليزية بعد ذلك وكانت فاعلة ومؤثرة.

ولد المُفَكِّر العملاق مالك بن نبي في السنة نفسها التي تُوُفِّيَ فيها

شيخ المجدِّدِين المعاصرين الأستاذ محمد عبده (1905) وفي عام (1927) رحل ابن نبي إلى فرنسا، ثم عاد إلى بلده، وسنة 1930م رجع إلى فرنسا وحاول الالتحاق بمدرسة اللغات الشرقية (الكوليج دي فرانس)، لكنه لم يُفلِح، وقد وضع المستشرق الفرنسي العقيد لويس ماسينيون عقبات كثرة في طريقه، وهذا مُتَوَقَّع من المستشرق الاستعماري الداهية ماسينيون الذي قضى شطرًا معتبرًا من حياته العملية ضالعًا في خدمة الاستعمار الفرنسي للجزائر وشمال إفريقيا وسوريا، كما إنه كان خبيرًا نافذًا في خطة سايكس بيكو لتقسيم العالم العربي في مرحلة ما بعد إسقاط الدولة العثمانية، ثم انتقل إلى النشاط العلمي والفكري فعَكَف على دراسة التصوف الإسلامي بشكل عام مع تركيز مَلْحُوظ على دراسة الحلاج وتصوُّفِه.

أقول: لقد تركَ موقف ماسينيون في نفسِ مالك بن نبي أثرًا بليغًا، دفعه إلى التعمق في البحث عن واقع المسلمين والعرب وسُبُل النهوض به.

ورأى أن من أَوْجَب الواجبات وأولاها بالعِنَايَة والاهتمام هو تحريك المُجْتَمَع والتاريخ، وأن ذلك يتوقَّف على تحريكِ الإنسان وإطلاق فاعليته، وهذا لن يحدث إلا عن طريق الفِكْر، ومن هنا أعادَ مالك بن نبي قراءَةَ الأفكار على الساحتين الإسلامية والغربية بعامَّة، والاستشراقية منها بخاصة، ووقف على حقيقة (معركة الأفكار) أو (صراع الأفكار) التي يديرها الغرب بقوة وكفاءة ليثبت (القابلية للاستعمار) في العقل والوُجدان العربي والمسلم.

وقد عرَضَ في كتابه هذا أسلوبين من أساليبِ المُسْتَشرقين يتمثَّل أولهما في الانتِقَاص من الإسلام ورميه بعَدم الأصالة وعدم القدرة عن قِيَادة الناس ويتمثَّل أخراهما في امتداح الإسلام والإشادة بفكرِه وتراثِه وحضارية ومنجزاته وقيمه.

ونظرَ مالك بن نبي في موقِفنا نحن المسلِمين من هذين التوجُّهين، ورأى أنه لا يتجَاوَز ردُودَ الأفعال ضِدَّ التوجُّه السلبي الانتقاضي والشعور بالانتشاء والسعادة الزَّائِفة من أثر تمجيد المستشرقين لفكرنا وحضارتنا الإسلامية واستنتج من هذا أن ردودَ فِعلنا ليسَت هي التي تؤدِّي إلى تحريك المجتمع والتاريخ الإسلامي واستئناف التأسيس والإنجاز الحضاري في الأمة.

فالمُسْتَعْمِرون -يقول مالك- يروِّعهم الاستقلال الثقافي والحضاري، ولا تروِّعهم الأفعال العنيفة التي يجيدونها أكثر من غيرهم، لذلك علينا نستعبد أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نُحَقِّق بذلك اقتصادنا الاقتصادي والسياسي.

لقد كان تركيز مالك بن نبي على الاستشراق في المرحلة الاستعمارية المُعَاصِرة، ولقد حذَا إدوارد سعيد حِذوه بعد عشرية من السنين فأصدر سنة 1978م كتابه الذَّائع (الاستشراق orientalism)

وسار في الشوط إلى نهايته فرأى أن الاستشراق الذي يستَحِق هذا الاسم هو الاستشراق الاستعماري المُعاصر.

رحم الله مُفكِّر الأمة مالك بن نبي وجعل ما قدَّم مِن فِكر نافِع للناس في ميزانه.

والشكر لـ (دار البشير) على حرصِها على نشر هذا الفِكر وإتاحَتِه للقراء والمهتمين.

محمد عبد الشرقاوي
أستاذ الفلسفة الإسلامية ومُقارَنَة الأدْيان والدراسات الاستشراقية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يجب أولاً أن نحدد المصطلح: أننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الاسلامية.

ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى «طبقات» على صنفين:

أ- من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جربر دورييك والقديس توماس الأكويني وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولدتسهير.

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها.

هكذا وعلى الترتيب يجب أن تقوم كل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق، إلا أننا، من الوجهة الاجتماعية الخاصة التي تهمنا في هذا البحث وفي النطاق الضيق المحدد لهذه السطور، نختار عن قصد فصلاً خاصاً، اختياراً تبرره مبررات إلغائنا للفصول الأخرى.

إنه لمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي دون أيما تأثير على أفكارنا، نحن معشر المسلمين، إن ما كتبوا كان قطعاً المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا، بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم.

فلنترك إذاً قضيتهم جانباً لمن تهمه دراسة التاريخ العام كما نترك أيضاً قضية المنتقدين على الحضارة الإسلامية المحدثين حتى ولو كان لهم بعض الأثر في تحريك أقلامنا أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وبلادهم مثلاً

الأب لامانس، إنهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن إنتاجهم، على فرض أنه مس ثقافتنا إلى حد ما، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائيا، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي، كما وقع ذلك في العهد الذي نشر فيه طه حسين كتابه في الشعر «الجاهلي» على غرار أثر في تطور أفكار المجتمع الإسلامي منذ قرن مما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجليوث قبل سنة من صدور كتاب طه حسين الذي أثار تلك الزوبعة من السخط التي تخللتها الصواعق المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وأكرم مثواه.

ولكننا على عكس ذلك نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس الذي يمكننا تصوره بقدر ما ندرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل حيث لم يكن هناك، في بادئ الأمر، مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا.

وموضوعنا هنا، هو أن نبين ما كان لهذه الثغرة في جهازنا للدفاع عن الكيان الثقافي، من أثر في تطور أفكار المجتمع الإسلامي منذ قرن، وأثناء هذا القرن العشرين على وجه الخصوص.

ولا شك أن المستشرقين المادحين مثل رينو الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي ومثل دوزي الذي بعث قلمه قرون الأنوار العربية في إسبانيا ومثل سيدييو الذي جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي ألبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيأة «القاعدة الثانية لحركة القمر» ومثل آسين بلاثيوس الذي كشف عن المصادر العربية لكوميدية الإلهية، لا شك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية، وللتاريخ، وكل ذلك من أجل

مجتمعهم الغربي.

ولكننا نجد أن أفكارهم كان لها وقع أكبر في المجتمع الإسلامي، في طبقاته المثقفة.

إن الجيل المسلم الذي أنتسب إليه يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديه لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمام ظاهرة الحضارة الغربية.

ولكننا إذا تصفحنا هذه القضية في ضوء خبرتنا الحديثة وفي ضوء تجاربنا القريبة نجد أن هذه الوسيلة لم تقتصر نتائجها على الأثر المحمود في تطور أفكارنا وثقافتنا، بل كان لها أثر مرضي هو الذي نريد طرحه كموضوع البحث في هذه السطور.

فلكي نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي، يجب أن نعيد هذا النوع من الاستشراق إلى مصادره التاريخية.

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد طوماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلًا تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر .

وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها وربما انطبقت

هـذه المجهـودات العلميـة، في نفـس أصحابهـا، عـلى مجـرد الاعـتراف بفضل تلـك الشـعوب وبمسـاهمتها في تكويـن الرصيـد الحضـاري الإنسـاني، ولا شـك أن المسـتشرق سـيدييو والعلامـة غوسـتاف لوبـون يتسـمان في إنتاجهما بميـزة العلـم الخالـص والاجتهـاد المخلـص للحقيقـة العلميـة.

ولكـن تجـب هنـا الملاحظـة بـأن هـذا اللقـاء الجديـد وقع في ملابسـات تاريخيـة لم يكـن فيهـا العلـم الإسـلامي علـماً حيـاً ينقـل من أفـواه الأسـاتذة مبـاشرة ومـن كتبهـم المعـاصرة بـل أصبـح أشـبه شيء بعلـم الآثـار يكتشـفه الباحثـون الأوروبيـون بحكـم الصدفـة ويصدقـون أولا يصدقـون في نقلـه، ثـم ينسـبونه لأصحابـه مـن العلماء المسـلمين، أو ينسـبونه لأنفسـهم أو لأحد الأوروبيـين، فهكـذا كانـت اكتشـافات كـبرى تنسـب لغـير أصحابهـا، مثـل دورة الـدم الصغـرى للإنجليـزي وليـام هـرفي بينـما كان صاحبهـا، الطبيـب المسـلم ابـن النفيـس يعيـش قبلـه بأربعـة قرون.

كـما تجـب الملاحظـة أيضاً أن العـالم الإسـلامي أصبح في هذه الملابسـات يعـاني الصدمـة التـي أصابتـه بهـا الثقافـة الغربيـة، ويعـاني بسـببها عـلى وجه الخصـوص أثريـن: مواجهـة مركـب نقـص محسـوس مـن ناحيـة، ومحاولـة التغلـب عليـه مـن ناحيـة أخـرى حتـى بالوسـائل التافهة.

لقـد أحدثـت هـذه الصدمـة، عنـد قبيـل مـن المثقفـين المسـلمين، شـبه شـلل في جهـاز حصانتهـم الثقافية، حتـى أدى بهم مركب النقـص الى أن ولوا مدبريـن أمـام الزحـف الثقـافي الغـربي، وألقـوا أسـلحتهم في الميـدان، كأنهم فلـول جيـش منهـزم في اللحظـة التـي بـدأ فيهـا الـصراع الفكـري يحتـدم بين المجتمـع الإسـلامي والغـرب، فأصبـح هـذا القبيـل مـن المثقفـين يبحث عن نجاتـه في التـزي بالـزي الغـربي، وينتحـل في أذواقـه وسـلوكه كل مـا يتسـم بالطابـع الغـربي حتى ولـو كان هذا الطابع ليـس إلاّ مظهـراً لا شيء وراءه من

القيـم الحضاريـة الغربيـة الحقيقية.

وبـدأت تظهر في الأفـق الثقافي الإسـلامي الفكرة الجديـدة التي حركت، بعـد حـرب السـباي (1858) بالهنـد، تأسـيس جامعـة عليكـرة، وحركـت، مـن جانـب آخـر وضد هـذا المشروع، باعـث النهضة الإسـلامية السـيد جمال الديـن الأفغاني.

وهكـذا أصبح الفكر الإسـلامي على أثـر الصدمة الثقافية التـي اجتاحته وما تسـبب عنها مـن موكب نقص.

ينحـاز إلى معسـكرين: أحدهمـا يدعـو لتمثل الفنـون والعلوم والأشـياء الغربيـة- حتـى اللبـاس- والآخر يحـاول التغلب عـلى مركب النقـص بتناول حقنـة اعتـزاز يعلل بهـا النفس.

فالتيـار الأول كان مـن الناحيـة العقلية، والسياسـية والاجتماعيـة له أثره في لونـين، اللـون الـذي يتمثـل في تأسـيس جامعـة عليكـرة، واللـون الـذي يتمثـل في دعـوة جمـال الديـن الأفغـاني مع تباين الأهداف وتشـابه الوسـائل التـي كانـت تفرض عـلى العـالم الإسـلامي في كلتـا الحالتـين تطوراً يـؤدي به إلى «الشـيئية» و «التكديـس».

وأمـا التيـار الثاني- وهـو موضوع حديثنـا لاتصاله بإنتاج المسـتشرقين- فإنـه وجـد منحـدره الطبيعـي في أدب الفخر والتمجيد الذي نشـأ منـذ القرن التاسـع عشر على أثـر ما نشره علماء مسـتشرقون، أمثـال دوزي، عن الحضارة الإسلامية.

ولا يمكننـا، عـلى أيـة حـال، أن نجعل بـأن التياريـن فاصـلاً قاطعاً، لأن الثـاني منهـما لا يكـون مدرسـة مسـتقلة عـن الأول، بـل نجـده يخامـر الفكـر الإسـلامي عـلى العموم ويتخلـل اتجاهه العـام كفكر يبحث عن حقنـة اعتزاز

للتغلب على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة، كما يبحث المدمن عن حقنة المخدر التي يستطيع بها مؤقتاً إشباع حاجته المرضية.

وهذا لا يجعلنا ننفي لهذا التيار، ولنوع الأدب الذي نتج عنه كل أثر حسن في مصير المجتمع الإسلامي، لأنه كان له نصيب لا يزهد فيه في الحفاظ على شخصيته، والجيل الذي أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل في المحافظة على شخصيته الإسلامية.

إنني على سبيل المثال، قد أكتشفت وأنا بين الخامسة عشر والعشرين من العمر، أمجاد الحضارة الإسلامية في ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزي عنها وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى.

وإنني على إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات وقد ذكرت ذلك في الجزء الأول من «مذكرات شاهد القرن»، والآن، وأنا قد تجاوزت الستين من العمر، أستطيع أكثر من ذي قبل تقدير هذا العلاج للفكر وللضمير لا في النطاق الشخصي فحسب بل في النطاق الشامل للمجتمع الإسلامي طيلة أربعين سنة بعد تجربتي، فأرى أن أقرر هنا، مع الاختصار اللازم في هذا الغرض أن مساوئ طريقة هذا العلاج تظهر لي بالتالي أكثر من حسناتها وذلك لأسباب متعددة.

فالسبب الأول لأنه بديهي نلاحظه في الآثار النفسية لأسلوب التكوين، أي البيداغوجية، بالنحو الذي نشير إليه بمثل بسيط: أننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخدر يعزل فكره مؤقتاً وضميره عن الشعور بها: إننا قطعاً لا نشفيها.

فكذلك لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه، ولا شك أن

أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة وتركوا بذلك أثر كل سمر، نشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماضٍ مترف.

ولكن سوف تستيقظ هذه الجماهير في الغد فتنفتح أبصارهم من جديد على مشهد الواقع القاسي الذي يحيط بها في وضعها الذي لا تغبط عليه اليوم.

فالأدب الذي ينشد «عصور الأنوار» للحضارة الإسلامية يؤدي أولاً هذين الدورين، إنه أتاح في مرحلة معينة الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي وحفظ هكذا مع عوامل أخرى على الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عمر الفعالية والميكانيك.

وليست هذه الملاحظة مجرد شيء عابر نمر عليه في هذا العرض مر الكرام، بل يجب أن نقف عندها بكل اهتمام وتأمل، ولذا كانت أهميتها تلوح لنا من الجانب الاجتماعي من دون أي تردد، فإنها تتخذ صورة أوضح إذا ما طرحناها على صعيد معركة الأفكار التي تجتاح العالم اليوم بصورة عامة والمجتمع الإسلامي بصورة خاصة.

وهنا تجب كلمة عن هذا المفهوم الذي نعنيه بـ «الصراع الفكري» في العالم الإسلامي، يجب أن نقرر مبدئياً هذه القاعدة العامة، ألا وهي أنه عندما يطرح مسلم أو بعض المسلمين مشكلة ما تهم مجتمعهم، فإن هذه المشكلة تكون قد طرحت أو ستطرح عاجلاً في أوساط المتخصصين في هذه الدراسات لحساب وتحت إشراف الاستعمار.

وكلما يتقدم هذا المفكر المسلم أو هؤلاء المسلمون بحل لهذه المشكلة،

يسرع من طرفهم أولئك الأخصائيون لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد.

هذه هي القاعدة العامة في الصراع الفكري الذي نشير إليه.

ويترتب على هذا، أنه كلما لاحت في العالم الإسلامي أي بادرة ذات مغزى، ولو كانت لا تبصرها أعيننا، فإن مجهر أولئك الأخصائيين يلتقطها على الفور، ليجري عليها كل طرق التحليل، وإذا وجدوا فيها أي اتصال بحركة الأفكار في العالم الإسلامي، تجري عليها كل عمليات التشريح، وتمر بكل أصناف التقطير، حتى يبقى في محتواها الاجتماعي أقل ما يمكن من عوامل التيسير لصلاحيتها وأكثر ما يمكن من عوامل التعسير وانتفاء الصلاحية.

ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما، هو اتجاه أفكاره: فإما أن تكون متجهة إلى الأمام، إلى المستقبل، أو إلى الخلف، اتجاهاً متقهقراً، اتجاهاً ملتفتاً إلى الماضي بصورة مرضية.

ومن دون أن نستمر إلى أبعد من هذا في تحليل هذه الإحكامات الدقيقة للصراع الفكري فلنلق هذه الاعتبارات على موضوعنا بالذات، نعني أثر هذا النوع من أدب المدح والتمجيد والإطراء على سير الأفكار، واتجاهها في المجتمع الإسلامي المعاصر، فنرى على الفور الجانب الآخر لهذا الأدب، عندما يصير بين يدي أولئك الأخصائيين وسيلة عمل جهنمي في تحريك رحا الصراع الفكري المحتدم في بلادنا.

إننا نرى اليوم مرأى العين هذا العمل الفتاك، ونرى أثره في كل تفاصيل حياتنا الفكرية والسياسية والاجتماعية، وفي البلاد العربية حيث

تكونت تجربتي وخبرتي كمواطن وككاتب وكصحافي.

وليس كتاب كامل بكافي لسرد هذه التجربة.

ولنذكر منها فقط، على سبيل المثال آخر تفصيل من تفاصيلها: انعقد أخيراً بباريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوروبا وبهذه المناسبة تقرر من لدن المشرفين على المؤتمر توزيع كتيب لصاحب هذا العرض، تناول فيه مشكلة من مشاكلنا اليوم، بالخصوص في الجزائر، البلد الذي اتخذ من كلمة «الديمقراطية» شعاره الدستوري.

ولكن أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري لم يهملوا هذه المناسبة من اهتمامهم، ولم يفتهم ما تقرر توزيعه بهذه المناسبة، ولكن كيف يسدون الذريعة، أعني كيف يسدون الطريق على الأفكار المعروضة في الكتيب الذي سيوزع أثناء المؤتمر، حتى لا يصل مداها إلى رؤوس المؤتمرين، أو على الأقل حتى يكون لها أقل مدى ممكن؟ وإذا بنا نرى الدعوة توجه إلى تلك السيدة الألمانية المقربة التي وضعت أو وضع اسمها على ذلك الكتاب ذي العنوان الجذاب «شمس الله تشرق على الغرب « وفيه ما فيه من مدح وتمجيد الحضارة الإسلامية.

وتقدمت السيدة، وقدمت كتابها إلى المؤتمر، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات الحادة القائمة اليوم، إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب! ولم يكن الصديق الذي كان يذكر لي هذه القصة يخطر على باله أي شيء من صلتها «بالصراع الفكري « وهو يقول: وفي الأخير قامت القاعة كلها لتحيي السيدة! ولا شك أن القصة تكشف عن جانبين: الجانب الذي يبرز حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها، والجانب الذي يكشف عن إمكان استغلال هذه الحساسية لإلفات تلك الجماهير عن حاضرها.

وهـذا الجانـب هـو الـذي يهمنـا لأنـه يلتقـي في الزمـن مـع أوج الموجـة العارمـة التـي تكتسـح اليوم العـالم، من أمواج الـصراع الفكـري، ولأنها فعلاً موجهـة في أوجهـا بالخصـوص في البـلاد الإسـلامية،- حتـى وان كانـت لا تشـعر بهـا أحياناً.

إنـما نـرى كيـف يتـصرف أولي الاختصـاص في الـصراع الفكـري، في ظـرف خـاص مـن ظروفـه، عندمـا تعرض فكـرة عمـل وتأمل عـلى الجماهير الإسـلامية، كيـف يسـتطيعون لفـت الأبصـار عنها بعـرض أفـكار أخرى في المناسـبة ذاتهـا، أفـكار جذابـة، تدعـو للأحلام السـعيدة، أفـكار مقتبسـة من قصـص ألـف ليلـة وليلة.

هـذه هي القاعـدة العامة التي يجب علينـا أن نجعلها دومـاً نصب أعيننا: إننـا كلـما طرحنـا مشـكلة وعرضنـا لهـا حـلاً مـن الحلـول فـإن قـادة الصراع الفكـري يأتـون عـلى الفـور بما يلفـت عنه الأبصـار أو مـا يزيفـه تزييفاً.

ومـا الحلـول التـي تعـرض علينـا في المجـال السـياسي، مثـل البعثيـة، والبربريـة، والإفريقيـة والشـيوعية- تلـك الشـيوعية التي يرعاها الاسـتعمار ويسـهر عـلى نباتهـا في مدفأتـه ومـا ذلـك الأدب المطنـب في المـدح والتمجيد لماضينـا إلا وسـائل إلفـات في المجـال السـياسي أو في المجـال الفكـري، حتى يلتفـت العالم الإسـلامي عن أم مشـكلاته، ألا وهـي مشـكلة حضارته، حتى يلفتـوه عنهـا، ويربطـوا اهتمامـه بمشـكلات وهميـة، ويلهـوه بحلـول وهمية، يتجـلى عبثهـا بصـورة مفجعـة في ظـرف مـن الظـروف الخطيرة غـداة إفلاس مصقـع، وهزيمـة شـنيعة، وفضيحـة مخجلـة، مثل غـداة 5 يونيـو 1967.

والواقـع أن قضيـة عمليـات الإلفـات والتسـلية كانـت قائمـة منـذ قبل الحـرب العالميـة الأولى، غـير أنها تطـرح اليوم والعالم الإسـلامي يمـر، في هذه

الآونة بالذات، بأخطر أزمة في تاريخه، حتى أننا نستطيع القول- إذا ما طرحنا جانباً بعض المظاهر من تطوره- أنه كان قبل أربعين سنة أقرب إلى الحل الرشيد لمشكلته وهو مستعمَر، لأنَّ وحدته الروحية أو الايديولوجية كانت أمتن منها اليوم فهو الآن، وهو مستقل، كأنما يبتعد عن هدفه لأن وحدته هذه قد تصدعت من عملية التقسيم التي أجريت عليه منذ أربعين سنة .

هذا هو الوضع الحقيقي، اذا ما طرحنا جانباً بعض المظاهر الخادعة- بحيث أننا إذا حكمنا بأن المجتمع الإسلامي ككل يواجه نفس المشكلة- قد تخلف منذ ربع قرن، وتقهقر، فليس في حكمنا أي إجحاف بالحقيقة، وإنما الخطأ في هذه النقطة بالذات يعود إلى أننا تعودنا تقدير الأشياء بالمقياس السياسي، ذلك المقياس الذي يجعلنا نقارن الوضع في حالتين مرت بها الدولة الإسلامية على ضفتين قريبتين من التاريخ، قبيل الحرب العالمية الثانية، وهي في نير الاستعمار، وبعد تلك الحرب، وهي متحررة سياسياً في أغلبها، دون أن نقف بالتأمل عند حقيقة هذا التحرر الذي لم يحم تلك الدول حتى من غيلة دويلة إسرائيل، بينما يكشف لنا هذا السير أو التطور منذ ربع قرن على أن المجتمع الإسلامي ضيع فيه، بين ضفتي التاريخ المشار إليها، أثمن ما عنده كزاد طريق، نعني الشعور بوحدة المصير، وضرورة الحل الواحد الذي لا تجزي عنه بعثية، ولا بربرية، ولا نزعة أفريقية، ولا شيوعية مصطنعة، ولا خرافات ألف ليلة وليلة.

واليوم تعترض العالم الإسلامي هذه المشكلة في صورة متأرجحة، شكسبيرية: هل نكون أو لا نكون؟ بينما تلمح ريشة الساعة إلى الاحتمال الثاني، منذ أتت أحداث يونيو 1967 معبرة بلغتها القاصية على عبث تلك التشييدات السياسية والعسكرية التي تستند على ظاهرة الشيئية نعني

تكديس تلك الأشياء التي جمعت في عشرين سنة من أجل الدفاع عن النفس، والتي ذابت في أول ساعة عند هجوم إسرائيل، وليس بمجد، لمواجهة الدويلة الصهيونية، أن نكدس من جديد، ذخيرة وزاداً وعتاداً، ليس بمجد تجديد الأشياء، بل تجديد الأفكار، ولكن تجديدها بصورة جذرية، بحيث تعوض تلك التي تؤدي إلى الهزيمة الهائلة وإلى الفضيحة الشنعاء، لأنها تفقد الروح التي ترفع الإنسان إلى مستوى مهماته، بالأفكار الحية، المحيية التي تعطي الإنسان تلك الدفعة الجبارة التي ترفعه إلى قمة واجباته أمام الأحداث الكبرى.

يجب أن نقف عند هذه الحقيقة، أن ما ينوب مجتمعاً ما في منعطفات التاريخ الخطير. ليس من قلة أشيائه ولكن من فقر أفكاره.

وما فاجعة سيناء، في غرة يونيو 1967، إلا المحك العملي الذي يبرز هذه الحقيقة العامة، في ظرف خاص للأمة العربية، ولعلي يجدر بنا أن نقف عند الظرف لنستخلص منه عبرة أخرى ألا وهي أن النصر الخاطف الذي أحرزته إسرائيل في هذا الظرف على كوم جامد من الأشياء التي كانت بيد العرب، أصبح يواجه على نفس الأرض صعوبات لم يتوقعها، لأنه يواجه اليوم رجالاً تحركهم أفكار جديدة، بل رجالاً تجددوا هم بهذه الأفكار: إن قصف باخرة «إيلات» والموقف البطولي للفدائيين الفلسطينيين على حدود الأردن، وداخل الأراضي المحتلة، ليسا إلا تعبيراً واحداً على التحول الذي حدث، إثر النكبة، لا في عالم الأشياء بالنسبة للعرب، بل في عالم أفكارهم.

ولست أتعرض هنا لقضية الأفكار بالنسبة لمجتمعنا إلا بصورة عابرة، تاركاً هذا الموضوع المهم إلى فرصة أخرى.

وحاصل الأمر أن الصدمة التي حصلت للضمير الإسلامي في القرن

التاسع عشر وفي هذا القرن، تجاه الحضارة الغربية، كانت محسوسة في عالم أفكارنا على وجه الخصوص، وفي مجال الأفكار العلمية بالذات، بحيث كان لهذه الصدمة أثرها حتى في ميدان تفسير القرآن الكريم، ولا شك أن عملاً جباراً مثل تفسير طنطاوي جوهري، ذلك التفسير الذي لا نجد فيه كثيراً من الجدوى، يعزى قطعاً إلى هذا التأثير العلماني على أفكارنا، مع الملاحظة أنه يعبر في نفس الوقت على ظاهرة التكديس، تكديس المعلومات طبعاً، بحيث يصبح هذا العمل الشاق كله أقرب إلى دائرة معارف منه إلى تفسير القرآن، كما أنه يعبر عن ظاهرة جديدة، هي تلك العلمانية العقيمة التي ليست بالنسبة للفكر الإسلامي إلا عملية تعويض في الميدان الذي شعر فيه أكثر بتحدي الحضارة الغربية.

والآن نستطيع القول أن هذا الميدان بالذات كان التربة الخصبة الذي وجدها الأدب الاستشراقي، من النوع الذي يتصف بالمدح والتمجيد، ليزرع فيها كل تلك المخدرات التي يتقبلها بكل شغف مجتمعنا لأنها تخدر ضميره وتسليه، ولكن هذا الضمير لا زال في صراع داخلي تسكنه أحياناً مؤلفات مشارقة مثل طنطاوي جوهري، وأحمد رضا وفريد وجدي أو مستشرقين مثل دوزي وجوستاف لوبون أو تثير، مؤلفات أخرى لمشارقة ومستشرقين آخرين في صورة استثارات وتحديات جديدة لما تستصغر هذه الطائفة أو تلك ما ساهم به العرب في تنمية العلوم، إبان حضارتهم، قاصرين دور هذه الحضارة على مجرد تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان.

واذا أردنا أن نخص إحدى هاتين الطائفتين بالذكر، نقول أن بعض هؤلاء المشارقة المتلمذين للمستشرقين يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام، بإيعاز واضح من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف

الراهنة في العالم الإسلامي.

ولا شك أن كتاب «الايديولوجيات العربية في محضر الغرب»، الذي ظهر منذ بضعة أشهر بتقديم مكسيم رودنسون، لا شك أن هذا الكتاب المبني على منطق سفسطائي، ذو صلة متينة بهذا التيار، وأن صاحبه، التلميذ المراكشي لصاحب المقدمة، من هذه الشجرة التي يجوز لنا أن ننسب لها أيضاً من تلامذة المستشرقين حتى أولئك الأبرياء الذين يضعون أقدامهم عن غير شعور في ثقافة الغرب بل في سياسته أيضاً ويتقدمون هكذا بأنصاف الحلول لأنصاف المشكلات التي يعتقدونها المشكلات الرئيسية للعالم الاسلامي غير أنهم يختلفون بحسن نواياهم عن الآخرين أولئك الآلات المسخرة بين أيدي اختصاصيي الصراع الفكري، السائرين على اثر أساتذتهم الغربيين، لا يختلفون معهم الا في مهارة الأسلوب والتزويق في الصيغة، ويلتقون مع أساتذتهم في الانتقاص من سوابق الفكر الاسلامي، ولكن يمتازون في احاطة مستقبله بالريبة والابهام بتلك الثرثرة التقدمية مثل صاحب كتاب «الايديولوجيات العربية في حضر الغرب» الذي أشرنا اليه.

وهكذا يبقى الضمير الاسلامي في دوامة صراعه الباطن يسكنه أحياناً ما يكتب المادحون ويثيره أحياناً أخرى ما ينتجه المفندون، وقد استمر هذا الصراع منذ قرن في حلقة مغلقة، مستهلكاً أجدى الطاقات الفكرية في العالم الاسلامي من دون جدوى، من دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الاسلامية، لم ينتج الا بعض الصواريخ الأدبية الخلابة في تلك المؤلفات الجميلة التي لم يبق لها أي أثر مثل كتاب «روح الاسلام» للسيد أمير علي.

بحيث لو أننا حاولنا اليوم أن نجعل تقويماً لهذا الانتاج نراه يعبر

أحسن تعبير على تبذير طاقات فكرية ثمينة لم يحسن استخدامها، واذا أردنا أن نعطي هذا التقويم كل معناه يجب أن نقارن هذا الانتاج بما أنتجه لوثر وكلفان إبان حركة الاصلاح في أوروبا، وانتاج ديكارت الذي وضع أقدام أوروبا على طريق التطور التكنولوجي أو انتاج ماركس وأنجلس ولينين الذين وضعوا على أقدامه مجتمعاً جديداً يغزو اليوم الفضاء.

وبالتالي يتبين لنا أن الانتاج الاستشراقي، بكلا نوعيه، كان شراً على المجتمع الاسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والاطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيد والاقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعاً ولكن دون هوادة، لا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الاسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ، دون أن نسلم لغيرنا حق الاصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب.

وعلى كل، فان أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانباً إيجابياً في هذا الاستشراق، فإننا لا نجده في صورة المديح، بل في صورة التفنيد.

فعندما يعلن الاستشراق أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم، وربما يؤدي بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بعلمانية سطحية نشاهد أثرها حتى في إنتاج بعض المفسرين مثل طنطاوي جوهري، ولكن، هذا الموقف يضطرنا، بما فيه من افراط في الجحود، إلى طرح مشكلة الإسلام والعلم في صورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم، بحيث لا نصبح نبحث في الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وانما نتساءل هل في روحها مما يعطل حركة العلم، أو على العكس

ما يشجعها وينميها.

يجب على وجه الخصوص أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية، ولتبليغه من أخرى.

هذه صورة المشكلة إذا ما طرحناها كما يجب طرحها، نعني من الجانب النفسي الاجتماعي، لا من جانب تاريخ تطور العلم، ولو كان علينا أن نبرر الفكر الإسلامي من هذه الناحية بالذات، لكفانا أن نضع في حسابه ابتكارين لولاهما لم يكن التقدم التكنولوجي في القرن العشرين شيئاً يتصوره العقل، أجل إن التقدم التكنولوجي يشمخ اليوم في فصل العلم النووي الذي لا يمكن للباحثين في هذا الفصل من علوم الطبيعة أن يحصلوا فيه على طائل لولا ما يجدونه مهيئاً تحت أيديهم من طرق حساب سرعتها فوق كل سرعة، يمكن تصورها في عمليات الآلات الحاسبة الإلكترونية.

فهل يمكن لهذه الآلات أن تقوم بعملياتها لو لم يهيئ من قبل ذلك النظام العشري الذي نستطيع به كتابة رقم أفوجدرو، على سبيل المثال، بخمسة رموز فقط، أو سبعة إذا تحرينا دقة أكثر؟ والآن نتساءل: ألسنا ندين بوضع هذا النظام العبقري لذلك المناخ العقلي الذي كونته القيمة القرآنية في المجتمع الإسلامي؟ كما أننا لو تساءلنا عن دور الجبر، في تطوير علم الحساب، بحيث يتحول من علم الأرقام المحسوسة إلى علم الرموز المجردة، لأدركنا بعد الأخذ في حسابنا أن اسم الجبر نفسه عربي من ناحية الصيغة والاشتقاق، لأدركنا ما يدين به العقل الانساني إلى العقل الإسلامي من وسيلة لا يستطيع بدونها السير والتقدم في ميدان علوم التقدير والضبط.

ولا يضيرنا أن يعزى الجبر، من طرف متطفلين من تلامذة المستشرقين مثل فريد وجدي الذي عزاه إلى اليونان ديوفانت بلا دليل ولا أي حجة، لا يضيرنا ذلك: أن الجبر أتى إلى الوجود في المناخ الذي خلقه القرآن.

ولقد يكون من العبث الصبياني أن نربط الصلة هنا، بين الآيات المنزهة وبين النظام العشري أو الجبر، عن طريقة ما يسمى تاريخ تطور العلوم.

إن القرآن الكريم لم يأت قطعاً، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور كما تطور بالنسبة إلى مرحلته السابقة في العهد الاغريقي والروماني، والأمر الجدير بالملاحظة هو أن تطور العلم لا يناط بالمعطيات العلمية فحسب، بل بكل الظروف النفسية الاجتماعية التي تتكون في مناخ معين، والأمر الجدير بالملاحظة أيضاً هو أن مراكز الاهتمام للعقل تتغير من عصر إلى آخر، من حضارة إلى غيرها، حسب التغيرات التي تحدث في المناخ العقلي بالذات.

إننا نستطيع قطعاً ربط العلاقة، من الناحية التاريخية، بين عهد الصناعة والتصنيع واكتشاف دونيس بيبان الذي كان ينظر إلى غلاية ماء فوق النار، فلاحظ أن مغلقها يرتفع وينزل بالتوالي، فاكتشف هذا طاقة البخار بالصدفة.

ولكننا نلاحظ أن هذه الصدفة كانت تتكرر عبر الأجيال منذ اكتشاف النار، فلم تؤد الى اكتشاف الطاقة البخارية إلى عهد بيبان. لماذا؟

السبب في ذلك هو أن دونيس بيبان أو نظيره الانجليزي واط كان يمارس ملاحظاته ويتفهمها ويفسرها في مناخ عقلي جديد، تكون في أوروبا

منذ قرنين من قبل، لما كتب ديكارت «خطابه» المشهور في المنهج وقال فيه هذه العبارات المتنبئة الموجهة: «إنه لمن الممكن الوصول إلى معرفة تطبق تطبيقاً نافعاً في الحياة، بحيث تترك مدارس التعليم تلك الفلسفة السكولاستية، وتعلم فلسفة تقبل التطبيق، وتتيح لنا، بعد معرفة تأثير النار والهواء والأجرام الفلكية، والسماوات وكل الأجرام التي تحيطنا، أن نستخدمها تحت قانونها بالذات لمصلحتنا الخاصة بحيث نتمكن من امتلاك الطبيعة والهيمنة عليها».

إن هذه العبارات ناصة فعلاً، متنبئة بما سيحدث بعد ديكارت من انقلابات علمية وتكنولوجية، فهي تدل بكل وضوح على المنحدر الذي سيتبعه الفكر الأوربي في بحثه عن الحقيقة العلمية ذات النفع المباشر، وكان لزاماً أن يلتقي الفكر الأوروبي على هذا المنحدر مع الطاقة البخارية سواء كان دونيس بيبان هو المكتشف أو غيره.

وبالتالي فان منهج ديكارت هو الذي كون، بصورة أعم، المناخ العقلي الجديد الذي ستترعرع فيه العبقرية المصلحية التي تتميز بها الحضارة الجديدة.

وهذه هي الزاوية بالذات التي نقدر منها العلاقات العامة بين الإسلام والعلم، فموقف الإنسان المسلم أمام عالم الظاهرات، والمنحدر الذي تتبعه العقلية الإسلامية تحت دفعة النص القرآني، والمناخ العقلي الجديد الذي ستتطور فيه هذه العقلية، هذه الأشياء هي في التالي العناصر الأساسية للقضية، فحسب.

فالعلم، من حيث أنه علم، هو مجموعة المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتسابها.

ولكـن يجـب علينـا إضافـة شيء إلى هـذا التعريـف الـذي تصورنـاه من زاويـة علـم تاريـخ التطـور العلمـي، لأن التطـور العلمي لا ينحـصر في هذه الزاويـة، بـل هو منـوط أيضاً بمجموعـة شروط نفسـية اجتماعية، تؤثر سـلبياً أو ايجابيـاً، بحيـث تعطـل هذا التطـور أو تتيحـه أكثر.

وعـلى سـبيل الإيضـاح، فإن جليليـه، لما أعلـن نظريـة دوران الأرض، لم تواجهـه معارضـة علميـة، بل معارضـة كلامية، نعنـي معارضـة عقائدية، ولم تـدن جليليـه أكاديميـة علوم، بـل أدانتـه محكمة دينيـة تحكمت في أمره باسـم العقيـدة، إن مـا أدانـه هو بالتالي مجموعـة عوامل القمع والحرمـان الموجودة في نفسـية المجتمـع الـذي حكم عليـه بالإعدام.

ولكـي نعطـي لهـذه الملاحظـة كل معناهـا ومغزاها تجب ملاحظـة أخرى أن في هـذا المجتمـع الأوروبي، مجتمـع مـا قبـل ديـكارت، الـذي أعـدم أحـد كبـار علـماء الفلـك، كان المنجم يقوم بدور كبـير المستشـارين، ويكرم ويقرب في بـلاط الملـوك، مثل ثوسراد موسـى الذي كان مستشـار الملكـة كاترينة دامد تـشي في البلاط الملكـي الفرنسي.

ولمزيـد مـن التوضيـح يجـب أن نقـول أن جليليـه هـذا لـو كان يعيش في المجتمـع الإسـلامي، حتـى لما بـدأ في ذلك العـصر في حركة الجـزر الحضري، مـا كان ليتعـرض لنفـس العوامـل التـي حـدَّت مـن عملـه العلمـي، وبالتالي حطمـت حياتـه، وإننـا لنـرى في أوائـل القـرن الرابـع الهجـري، أحـد كبـار الملحديـن في ذلـك العـصر ابـن الرونـدي المذكـور في كتـاب الـزركلي، نـراه ينتقـص مـن شـخص النبـي الأمـي عليـه الصـلاة والسـلام فيقول في شـأنه: «لقـد تحجـر عريضاً ابن أبي كبشـة حـين ادعى أنه خاتـم الأنبياء» والمشـار إليه بابـن أبي كبشـة معـروف لـدى الجميـع، ومع هـذا لم نـرَ محكمة تفتيـش تنعقد مـن أجـل محاكمة وإدانـة هذا التعـدي البليغ على أكبر شـخصية في الإسـلام،

بحيث نرى صاحبه يلجأ بالتالي إلى انتحار أثناء حجة إلى مكة.

وأكثر من هذا: كان اليهودي يستطيع التعدي على عزة القرآن ذاته، دون أن تنزل به أي كارثة، ما عدا الردود المنتظرة مثل الرد المفحم الذي ورد في ابن حزم لما انتقد يهودي من يهود الأندلس، القرآن الكريم نقداً غير نزيه، فأفحمه ابن حزم في «رسالة ابن النجريله» المشهورة.

وهذه الحالات المتطرفة قطعاً، إن دلت على شيء إنما تدل على أن المناخ العقلي الجديد، الذي تمتع به المجتمع الإسلامي عندما كان القدوة والنموذج في العالم، ما كان يعرف الإكراه كوسيلة قمع للفكر ولحرية الرأي.

وما كان دور عوامل الحرمان إلا في بعض الحالات الشاذة، مثل القضية التي طرحها عصر المأمون بشأن القرآن، هل هو مخلوق أم سرمدي، وحتى في هذه الحالات نجد عناصر أخرى تحد من عوامل وتخفف من شدتها، وهي العناصر التي نمت في الضمير الإسلامي مع البذور التي بذرها فيه القرآن، إننا نرى فعلاً كيف بدأ المناخ العقلي الجديد يتكون منذ بداية الوحي.

بينما ينفتح كتاب العهد القديم، منذ السطر الأول في سفر التكوين، على عالم الظاهرات المادية، وينفتح كتاب العهد الجديد في إنجيل يوحنا، على عملية التجسيد، ينفتح القرآن على الجانب العقلي: اقرأ باسم ربك... اقرأ... هذه هي الكلمة الأولى التي تفتح إليها أول ضمير إسلامي، ضمير محمد، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم.

إن الحروف هي حقاً أداة النقل للروح، لكل رسالة، ولكل بلاغ، فهي الحامل والرمز لكل معلومة من المعلومات، فأول ما نزل به القرآن يشير

إلى أهميتها، ويخصص موضوعها بالذكر، ويرسم في الضمير الإسلامي قيمتها منه اللحظة الأولى في كلمة اقرأ.

إن الحرف ينقل ويبلغ الروح، وفي نفس الوقت يحفظه من الضياع، وسيحفظ أولاً وقبل كل شيء القرآن نفسه، ذلك الكتاب الذي لم يتغير فيه حرف واحد منذ أربعة عشر قرناً، على خلاف كل الكتب الأخرى، من العهد القديم إلى العهد الجديد، حيث لم يبق فيها، من ناحية صحتها التاريخية، إلا القيمة الرمزية، التي يحترمها النقد الحديث، دون أن يعتمدها من الناحية العامية.

وليست هذه الميزة إلا النتيجة العلمية الأولى، لهذا الفكر الجديد الذي ظهر في المناخ القرآني، ذلك المناخ الذي تدشن بالضبط يوم قام المجتمع الإسلامي الناشئ، أيام سيدنا عثمان، جمع الآيات الكريمة لحفظها من التلف، ولحصرها نهائياً في صورة لا تقبل أي تغيير، واللجنة التي قامت بهذا العمل تحت رئاسة سيدنا زيد بن ثابت، قامت في الحقيقة بأول عمل علمي طبقاً لمنهج، ليس من موضوعنا هنا ذكر تفاصيله، ولكنه يوجب إعجاب النقد الحديث إزاء ما تحراه من دقة.

إنه كان حقاً أول عمل علمي للفكر الإسلامي، بل أول عمل علمي للفكر البشري من نوعه الذي طالما تعثر في تاريخه، على مبدأ التسليم للقدوة، بل لا زال يتعثر عليه حتى الآن أحياناً، مثلما حدث في الاتحاد السوفيتي حيث تأخر علم الحياة بثلاثين سنة عن الركب، أيام القدوة التي افترضها لنفسه ليسنكو في هذا الميدان.

ولهذا المعوق تاريخه في جميع المجتمعات الإنسانية، فهو ملازم لتطورها حسب عمرها النفساني.

فالإنسانية، على العموم، تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسي، فهي في عصرها الأول، في طفولتها، تصيغ كل أحكامها طبقاً لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، بحيث تكون أحكامها في أبسط صورها، معتمدة على الحاسة أو ناتجة عن الحاجة البدائية.

ثم في عمرها الثاني تصيغ أحكامها طبقاً لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة، أي صادرة من عالم الأشخاص، ففي هذا الطور، لا تكون الفكرة حرة من تجسيد، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذي يجسدها في نظرنا.

ثم تبلغ الانسانية رشدها، أي عمرها الثالث، فتصبح الفكرة ذات قيمة في حد ذاتها، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص.

وأن مما تجب ملاحظته هنا، أن الإنسانية تبلغ هذا العمر، عمر النضج، بحيث تصبح الفكرة لا تحتاج إلى ضمان قيمتها من طرف الأشخاص علاوة على الأشياء، والآية التي تنص على هذا الحدث في منتهى الوضوح، إذا ما لاحظنا أن الفكرة الإسلامية مرتبطة بذات النبي «صلى الله عليه وسلم» الارتباط المعروف، كأنها المجسدة في شخصه في نظر ذلك المجتمع البسيط الذي وجهت إليه الدعوة.

ولكن أراد القرآن الكريم أن تتحرر الآية من هذا القيد، وبالتالي أن يتحرر المجتمع الجديد من هذا النوع من القيود المعطلة لتقدم الفكر والعلم.

ونزلت فعلاً الآية المحرِّرَة: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ... ؟) ان هذه الآية نزلت بمثابة الدفعة التي دفعت المجتمع البدائي الذي نزلت فيه، من عصر «الشيء» والشيئية، إلى عصر الفكر.

وهكـذا نـرى كل ملامـح هـذا المجتمع النفسـية تتغـير منذ نـزول «اقرأ» تغـيراً يتولـد عنـه المنـاخ العقـلي الجديـد، وبالإضافـة إلى ذلـك نرى نوعـاً من الاختبـارات تجـري على هذا المنـاخ لتوضح أكثر ملامحه في الضمير الإسـلامي الناشـئ عندمـا يلقي عليه القـرآن مثل هذا السـؤال: قُلْ: هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُـونَ؟ إن هـذه الآيـة الـواردة في صـورة سـؤال عـلى لسـان النبـي «صـلى الله عليه وسـلم»، اختبـار، وتركيز في الضمير الإسـلامي لقيمـة العلـم، ولفضـل رجل العلـم على الجاهـل في المجتمـع الجديد.

والعلـم مـا هو، في أبسـط معانيه، إلا البحـث عن الحقيقـة في كل ميدان، في الأخـلاق، في التشريـع، في الاجتماع، في الطـب، في الطبيعة إلخ...

ولكـن هـذا البحـث معـرض لمعوقـات وإلى متاهـات: قـد نتخـذ وهمـا بمثابـة حقيقـة، قـد نتيـه في الآراء، ورب رأي خطـأ، فعـلى العلـم أن يواجـه هـذه الحـالات التـي يـتردد فيهـا العقـل بـين الشـك والاقتنـاع، بتمرينـه على هـذه المواجهة.

فالقـرآن لا يهمـل هـذا الجانـب بـل يلفـت النظـر إليـه أحيانـاً بالإشـارة والتلميـح، فيكشـف الفـرق بـين الحقيقـة ومـا سـواها مثـلاً في قصـة يصـف فيهـا انحـراف اليهود من هـذه الناحية: ومنهـم أميون لا يعلمـون الكتاب إلا أمـاني وإن هـم إلا يظنون.

فهنـا نـرى الميـل، والشـك، ومجـرد الاحتـمال، هـذه الأمـور المعـبرة عن صـور مختلفـة للـتردد توضع في مكانهـا من «الحقيقة» السـاطعة التـي تعبر عن الاقتنـاع العقـلي في أصفـى صوره.

وهـذه آية أخرى توجه النقد الصارم للفكر الذي يسـوغ لنفسـه المناقشـة فيـما لا علـم لـه بـه، دون أن يتحـرى أولاً جمـع معطيـات موضـوع المناقشـة:

(هَـا أَنْتُـمْ هَـؤُلَاءِ حَاجَجْتُـمْ فِيـمَا لَكُـمْ بِـهِ عِلْـمٌ فَلِـمَ تُحَاجُّونَ فِيـمَا لَيْـسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْـمٌ؟.) فهـذه الآيـات، تضـع الفكر الإسـلامي في طريـق العلـم وتزوده لاكتسـابه بأحسـن التوجيهـات المنهجية، وغيرهـا كثير، بحيث يكـون القرآن الكريـم، من هـذه الناحية، منهجاً تربوياً جديراً بالدراسـة في غـير هذا المكان، إلا أننـا نضيـف أن المفهـوم القـرآني العـام ينصـب في الحديـث النبـوي الـذي يصيغـه في القالـب التطبيقـي، في صورة أحـكام تدخل مباشرة في حياة المسـلم اليوميـة، وفي توجيـه وجـوه نشـاطه: العلم فريضة على كل مسـلم ومسـلمة.

اطلبوا العلم ولو بالصين.

حبر العلماء أفضل من دم الشهداء.

فهـذه الأحاديـث وغيرها تدعـم عملياً، كما نـرى، البنـاءات العقلية التي أنشـاها القـرآن في الفكـر الإسـلامي الـذي ينطلـق محصنـاً، مـزوداً، موجهـاً هكـذا للقيام بمهمتـه العلميـة والسياسـية والاجتماعية.

وإننـا لنـرى أثـر هـذا المنهج التربـوي الـذي هيـأ المجتمع الجديـد لمهماته العقليـة، حتى في سـلوك الفرد أمام اختبارات بسـيطة في ظـروف ذات مغزى، نـرى مثـلاً، عمر ابن الخطـاب يمر يوماً بدرب مـن دروب المدينـة، وهو يتلو، عـلى طريقتـه في الجلـوس أو في المـشي، يتلـو الآية، (أَنَّـا صَبَبْنَـا الْمَاءَ صَبًّـا * ثُمَّ شَـقَقْنَا الْأَرْضَ شَـقًّا * فَأَنْبَتْنَـا فِيهَـا حَبًّا * وَعِنَبًـا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًـا وَنَخْلًا * وَحَدَائِـقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَـةً وَأَبًّا).

وهـا عمـر يقـف عنـد كلمـة «أبـا» ويشـعر أنـه لا يعـرف معناهـا، ترى كيـف سـيحل هـذه المشـكلة؟ إن عمـر ليـس مـن علـماء اللغـة، وهـذا العلم نفسـه ليـس موجـوداً بعـد، إلى عصر صاحـب كتاب العـين، الخليـل بن أحمد الفراهيـدي الـذي يجـب أن نعتبره اليوم المؤسـس لعلـم اللغـات، وليس عمر

بالمفسر أيضاً، إنه رجل فقط، رجل عمل لا يحق له أن يتورط في الشؤون التي ليست من اختصاصه، وإلا وقع فيما حذر منه القرآن الكريم في قوله لليهود: (فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟) واننا لنرى عمر لا يقف إلا هنيهة عند الكلمة التي أوقفته، والتي لا تنقص شيئاً، إن جهلناها، من وضوح الآية لأي ضمير مؤمن، فالمشكلة بالنسبة له، في هذه اللحظة، ليست في نطاق العلم، ولكن في نطاق السلوك، ونراه فعلاً يحلها بكلمة يؤنب بها نفسه: «ما لعمر والأبّ، إن جهل ما الأب، إن هذا إلاّ لكلفة يا عمر» وانطلق عمر إلى شؤونه، حيث تدعوه المسؤوليات الكبرى، ونراه يوماً آخر يجتهد في تحديد صداق المرأة، لأنه يراه فوق ما يناسب في نظره، ولكن ها هي امرأة تعارضه، فتقول له: ما أعطاك الله ذلك يا عمر وتذكو الآية: (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا؟).

فسكت عمر ثم قال: إن كل الناس أعلم منك يا عمر حتى هذه المرأة العجوز.. وتراجع عن رأيه.

إننا نرى في هذين الظرفين موقف العقل تجاه الاختبارات التي تعرض له، نرى في الظرف الأول كيف يتحرر العقل في المناخ الجديد من الشكليات، من سلطان المفردات الذي طالما عوق تقدم العلم.

وفي الظرف الثاني، نراه كيف يتحرر من المكابرة وهي شر عدو للحقيقة، وأكبر معوق للفوز بها.

بل نرى كل ظرف يعبر في المجتمع الجديد على المناخ العقلي الذي كونه القرآن، نرى مثلاً عليّ بن أبي طالب، يحتقر يوم النهروان رأي المنجم الذي يشير عليه بالانطلاق في وقت معين، فينطلق عليّ في غير ذلك

الوقت، متعمداً وينتصر، ثم يقول على الملأ: لو انطلقنا في الوقت الذي أشار به المنجم لقال لنا اننا انتصرنا بما أشارت به النجوم.

وفي ظرف آخر يسلم علي الراية إلى زياد بن النظر ويقول له: قد هذه الفئات، واستفد برأي عالمهم، وعلم جاهلهم.

وهنا نرى في المناخ الجديد الفكر الاسلامي يضع سلماً، يتسلقه الفرد، وهو يدلي بعلمه لمن دونه درجة، ويطلب العلم ممن فوقه، وهكذا ينطلق تيار العرفان في الاتجاهين ومن أسفل إلى أعلى أحياناً، عندما تقف المرأة مثلاً، وترد رأي عمر في قضية الصداق.

ولا شك أن هذا السلم هو الذي أتاح للفكر الاسلامي الانطلاق، من عصر الشيئية في عهد العصر الجاهلي، للوصول إلى تلك القمم الشامخة التي أشع منها العلم على العالم الذي كانت تخيم عليه الظلمات.

واليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة ونتيه في عالم الخيال لما تذكرها أقلام المستشرقين، وان نكرتها يعترينا مركب النقص، وفي كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات في روحنا حرماناً مزدوجاً لا نستطيع التخلص منه إلا إذا تذكرنا السلم الذي وضعه المفهوم القرآني ليتسلقه الفكر الإنساني حتى يصل على درجاته إلى تلك الانجازات العلمية التي تهيمن حتى اليوم على التقدم التكنولوجي، مثل الحساب العشري أو الغباري، والجبر، والكيمياء وعدد من القوانين في عالم الكائنات العضوية، والطبيعة، والفلك، وإذا لذكرنا هذا السلم فلنعلم أنه ما زال تحت يد أو تحت قدم المجتمع الإسلامي متى أراد استخدامه من جديد، وبحسبنا أن نقرر أن مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الانسانية العلمي ليست تقدر فحسب بإنجازات يقرها أو ينفيها المستشرق، حسب هواه بل تقدر

بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخ العقلي والبناءات العقلية، منذ كلمة «اقرأ».

وبالتالي، ربما وجب علينا أن نستخلص من هذا العرض نتيجة تحدد موقفنا من إنتاج المستشرقين، فنقول أولاً انه إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلمية، بل نراه أحياناً يستحق كل التقدير لما يتسم- في بعض أصنافه مثل ما خلفه سيديو أو جوستاف لوبون أو آسين بلاثيوس- بالإضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء.

ولكننا نغفل جانباً أساسياً في الموضوع إذا لم نأخذ في حسابنا أن كل ما ينتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقاييس الفعالية، لا يخلو من بعد عملي قد يستغل في ميدان السياسة والانتفاع حيث تصبح الأفكار، ما سما منها وما كان تافهاً، مسخرة لتكون وسائل افتضاض الضمائر والعقول.

إن الكتب، بغاليها وتافهها، تقع بمجرد خروجها من الطبع، وتقع أحياناً دون أن يشعر أصحابها في أيدي أخصائيين يسخرونها للصراع الفكري، فيصيرونها أدوات للمشاغبة، وللتحلل الأخلاقي، أو مجرد أدوات إلفات وتلهية، ومما نلاحظه أن الكتاب الذي يتعلق بموضوعنا يصدر في عاصمة أوروبية في نفس الوقت مع ترجمته في عاصمة عربية.

ولا يبدو هذا التنسيق يلفت النظر حتى في البلاد التي تعاني آثار الصراع الفكري، ودون أن تشعر هذه البلاد بالوسائل التي يستخدمها هذا الصراع ولا بأهدافه، بل ولا بمعنى هذه الكلمة نفسها كأنها مجرد مفردة.

ونختبر بهذا الصدد عقلاً متنوراً فسوف نراه يحوم حول جواب متردد

مرتـاب، لا يسـتطيع صياغته بوضوح، وإنما يتمتم: الـصراع الفكري؟...

آه لعلكـم تتحدثـون عـن الوجوديـة، والماركسـية، والسرياليـة؟ وإذا مـا أبرزتـم أكثـر معنـى سـؤالكم، وقلتم: لا يا سـيدي بـل أتحدث عن ماركسـية لا صلـة لهـا بماركـس، وإنما هي مجـرد كلمات وشـعارات تلقنها لشـبابنا بعض سـلطات تـرى في الماركسـية مجـرد وسـيلة للعمـل ضد الإسـلام، كـما أتحدث عـن وجوديـة لا صلـة لهـا بوجودنـا عـلى الاطـلاق، وعـن سرياليـة لا تمـت بصلـة للفـن، وليسـت هـذه الأشـياء في الواقع إلا وسـائل للتغلغـل في عقول النشـئ الجديـد تسـتعملها مـن أجـل هـذا الغـرض دوائـر لا تؤمـن بهـا مـن الناحيـة الفلسـفية والفنيـة والاجتماعية.

إننـي أتحـدث مثلاً عـن تلك الكتـب من نوع «ديجسـت» التي تـوزع مجاناً أو بثمـن بخـس عـلى الشـباب كـي تعينـه بتواضـع ثمنها عـلى هضـم الأفكار المعروضـة لضميره..

ولكـن هيهـات... هيهـات أن يفقـه هذا الحديـث «الفكر المتنـور» الذي يسـتمع لكم، إن على بصره لغشـاوة، ولسـتما، أنتـم وهو، على نفـس الصعيد، فهـو يعيـش عـلى الصعيـد الفكـري، حيـث نتلقى أفـكار الغـير بـكل تقدير، لأن الآراء والأذواق ليسـت موضـوع نقاش، حسـب زعمهـم، وربما تكونون أنتـم عـلى الصعيد الايديولوجـي حيث يجـب أن تطرح كل فكـرة واردة تحت المجهـر لينظـر في شـأنها، لأن الفكـرة قـد لا تكـون، على هـذا الصعيـد، مجرد فكـرة ينظـر فيهـا مـن الزاوية الفكريـة أو الفنيـة فحسـب، أو بالنظـر إلى نوايا صاحبهـا فقـط، ولكـن ينظـر فيها مـن حيث نوايـا من يسـتخدمها.

وعـلى العمـوم فـإن مـن يسـتمع إليكـم لا يفهمكـم لأنـه خـالي الذهـن مـن فكـرة الـصراع الفكـري، في العـالم، وعـلى أكثر تقدير يشـعر بوجـود هذا

الـصراع في المجـال الـدولي بـين الكتلتـين الكبيرتـين.

يجـب إذاً أن نذكـر، ولـو كلمـة، عـلى هـذا المفهـوم بالنسـبة لموضوعنـا، حيـث لا نعتبر انتاج المسـتشرقين من زاويـة ذاتية أصحابه، مـن ناحية ميزاتهم الفكريـة ونواياهـم، بـل من زاويـة من يسـتخدم إنتاجهـم لغايـات خاصة في عالمنـا نفسـه، لا في عـالم بعيـد أو خيالي.

فهـذه الغايـات التـي عرفناهـا فيما سـبق بــ «افتضـاض الضمائـر» يمكن تلخيصهـا كـما يـلي: إن كل فـراغ ايديولوجي لا تشـغله أفكارنا، ينتظـر أفكاراً منافيـة، معاديـة لنا.

فهـذه هـي القاعـدة العامـة... والمتخصصـون في الـصراع الفكـري يعرفونهـا كـما يعرفـون أبناءهـم، ولكـن يجـب أن نضيـف إلى ذلـك أن أولئك الاخصائيـين ليسـوا مجـرد مثقفـين، يبحثـون عـن الحقيقـة، لأنهـا حقيقـة، ولكنهـم يبحثـون عـن جانـب التطبيـق منهـا في مجـال المصلحـة السياسـية، ولعلهـم إذا لا ينتظـرون وقـوع الفـراغ الايديولوجي لاحتلاله، بـل يصنعونه هـم، وربـما يشـغلونه مؤقتـاً بأفـكار سـواهم حتـى تنتهـي، في مرحلـة أولى، عمليـة فصلنـا عـن أفكارنـا بتلـك الأفـكار الفاصلـة الوسـيطة.

أجـل، إن هـذا المجـال ليـس المجـال الـذي يطبـق فيـه المبـدأ المقـرر تبعاً لخط مسـتقيم، مثل الهندسـة، حيـث النتيجة المنطقيـة تتبع مبـاشرة التي قبلها، فالـصراع الفكـري يجـري فيـه منطقه الخـاص، تبعـاً لخط ملتـوٍ عـلى العموم، بحيـث يقتـضي الانتقـال مـن مرحلـة معينـة إلى أخـرى، إلى مراحـل وسـيطة تفـرض منعرجـات ومنعطفـات الطريق.

فالماركسـية المزيفـة مثـلاً التـي تلقـن إلى الجنـاح اليسـاري مـن شـبابنا، ليسـت إلاَّ مرحلة وسـيطة، تفصل طائفة من شـبابنا عن الجبهـة الأيديولوجية

الوطنيـة، لأن المشرف على عملية الفصل، لا يسـتطيع أن يقـول لتلك الطائفة: نريـد تخفيـض حركة النمـو في بلادكـم، والحد منها، هـل لكـم أن تعينونا على تشـويه واسـتنقاص الأفـكار والمثـل التي تدعـم هذه الحركـة؟ ان قـولاً كهذا يكـون قطعـاً صنفاً مـن الجنون والعبـث لا نتصورهمـا في ابليس.

فـما يبقـى عليـه إلا أن يحمـل هـذه الطائفـة عـلى جسر مـن أفـكار الغير ليعـبر بهـم إلى الضفـة الأخـرى حيث نجـد عصابـة مـن ماركسـيين مزيفين، وقوميـين مصطنعـين، وأفـراد مقنعـين عـلى وجوههـم قنـاع الثورة.

وبهـذه العلميـة الأولى تكـون قـد حصلـت عـلى نتيجـة أولى: أن وحـدة الصـف المعنويـة قـد انفصمـت في الوطـن في الوقت ذاتـه الذي هـو في حاجه لهـا لمواجهـة مشـكلات الاسـتقلال الصعبـة وذات الأهميـة الكبرى.

حتـى أن عـدد هـذه المشـكلات، عـوض أن ينقـص، يتزايـد بقـدر مـن تـأتي العمليـة بنتائجهـا الفكريـة لـدى هـذا الشـباب، وبنتائجهـا الاجتماعيـة في المجتمـع، حتـى يصبـح هـذا الشـباب يلعـب دور الفرملـة عندمـا يضـع عليـه أخصائيـو الـصراع الفكري قدمهـم، ونقـول قدمهم لأنهـم يتنزهون أن يضعـوا أيديهـم عـلى هـذه الأجهزة.

وربـما تبـدو هـذه الاعتبـارات دون صلـة بموضـوع المسـتشرقين، نقول أجـل لهـا صلـة، عـلى شرط أن نتبـصر في العمليـة بصـورة شـاملة، لأنهـا في الوقـت الـذي نلاحظهـا من جانب الشـباب الذي تحقـن له حقنة من سـيروم الـكلاب المسـعورة، فينطلـق يلهـث في مجـال الديماغوجيـة، نراهـا تسـتمر في الناحيـة الأخـرى حيث يصـب نفس الأخصائيـون في روح الجنـاح الآخر من شـبابنا عقـار النـوم والسـلوى من خالـص إنتاج المسـتشرقين.

وهكـذا تتـم العمليـة عـلى جناحـي شـبابنا: الجنـاح المصـاب بالشـلل

المضطرب والجناح المصاب بالشلل المسكن، فالبعض يصيحون ويضطربون، والآخرون يحلمون في بلاد تتطلب النظام والجدية، وتتطلب الضمير المتيقظ على الدوام لمواجهة مشكلات الاستقلال.

وعلى كل هكذا نرى الإنتاج الاستشراقي في دوره في إطار ما نسميه الصراع الفكري.

والآن نتساءل: كيف يجب أن يكون عملنا الفكري في هذا الاطار؟ فليسمح لنا ألاَّ ندخل في التفصيل في هذه السطور، وأن نتقدم فحسب بالملاحظة العامة التي نراها تتردد، عن حق، في أحاديثنا اليوم بأن الاستقلال السياسي لا يكفي ولا يشفي إن لم يدعمه الاستقلال الاقتصادي. فهذا صحيح.. إلا أنه يجب أن نضيف له أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج سواء كانت تمت إلى الاستشراق أو الشيوعية.

وأن في تجربة كوبا لأكبر في ليل على ذلك فإنها تشق طريقها اليوم بالخبرة التي تكتسبها في التطبيق لا في الكتب.

فعلينا أن نكتسب خبرتنا كذلك أي أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألا نسلم بأن تحدد لنا.

وبكلمة علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي.